

القصة في الأدب السرياني

عادل دنو — سدني

نطمح كغيرنا من الأدباء أن تتوفر أرضية جيدة وغالباً ما نريدها دسمة حول الخطابات الأدبية التي زخرت فيها الساحة الأدبية السريانية خلال القرن الماضي بالتحديد والذي فيه ظهرت بوادر تستحق التوثيق والتعريف بها ودراستها ووضعها أمام دارسين آخرين ليظهروا مكامن الإبداع الفني لجنس أدبي غني جداً ضمن آداب الأمم الأخرى..

ولعل انتعاش الخطاب القصصي، هذا الجنس بشكل خاص يعود إلى الوعي الناشئ لدى بعض الكتاب السريان في العراق وبلاد المهجر بأهمية السرد القصصي، القصة القصيرة أو الرواية، في التعبير عن كوامن ودخائل الألم المرافق للأمة المرتحلة بسبب الإضطهادات التي ألمّت بها فلا يوجد قوم تعذبوا ومورست ضدّهم أشنع أنواع الإضطهاد مثلهم، لتأتي أقلامهم وتعبر عن حركة الأمة وتقلباتها وأخرى تستلهم التاريخ بحثاً عن العبر، فيما جاءت نصوص سردية وعظيمة تتأمل الوضع المأساوي الذي أودى بحيوات الآباء والأمهات وتشرذم العائلة والفقر والعلاقات اللإنسانية حتى مع أبناء هذه الأمة مع بعضهم.

إنه لمن الصعوبة بمكان استنباط تاريخ محدد لبداية هذا الجنس الأدبي في الآداب السريانية بسبب ندرة أو انعدام المصادر التي يمكن الإستعانة بها وبسبب تشتت الإصدارات ونظراً لمحدودية إعداد النسخ المطبوعة وانعدام الرؤية الواضحة في التوزيع وعدم وجود مؤسسات إلا ما ندر المهتمة بطباعة وإصدار كتب تعنى بالنص السردى سواء أكان القصة أو القصة القصيرة أو الرواية وغيرها. ثم بسبب بعد المسافات بين الجاليات الأشورية المنتشرة في بقاع العالم.

إننا نطمح للقيام بدراسة لهذا الصنف الأدبي لكن هذه الأسباب والكثير سواها قد تعطي انطباعاً بأن الدراسة ستوفر الكثير من التعميم وقد يصاحبها اللاموضوعية.. إلا أنّ الخوض فيها يتطلب محاولة لملمة حدود الدراسة قدر الإمكان وبحسب ما تتوفر عليه المعلومات وما يمكن الحصول عليه من هنا وهناك (بمساعدة الخبيرين) سواء النصوص الصادرة ذاتها التي ستكون مادة الدراسة الأولى أو كتابات نقدية أو تاريخية أو أرشيفية أو مقالات صحفية أو رسائل أو مقدمات أو ديباجات وحتى آراء الأدباء والمهتمين بالأدب السرياني بشكل عام وبفن القصة القصيرة خصوصاً.

لا أشك أن الأدب السرياني يتوفر بكم ضخم جداً لما يمكن أن يندرج تحت مسمى هذا النوع من السرد، وإن كان بعض الأدباء قد اهتموا بهذا الفن ودراسة بعض جوانبه، ولكن مثل بقية أشكال الأدب السرياني لم تحظ بالإهتمام الكافي من أبنائها لصعوبة تقصي المعلومات وانكفاء الأدباء على أنفسهم حالما تضطروهم الظروف إلى الهرب والتخفي والهجرة، لا بل تصل إلى أن أحد الأدباء يضطر إلى أن يحرق جميع مؤلفاته ويهرب.

لأسباب المذكورة أعلاه ينبغي الاستعانة بمهتمين بالخطاب السريدي السرياني في جميع أنحاء العالم من السريان وغيرهم من الذين لديهم اطلاع على هذا الفن. والتقدم بمناشدة كل من لديه معلومات عن فن القصة السريانية منها القصة القصيرة جداً والقصة القصيرة والرواية، أن يتفضل بتزويدنا بما لديه لنتمكن فيما بعد من تحديد ملامح عامة نشتغل عليها لإبراز الجوانب التاريخية والفنية في أدب القصة القصيرة السريانية.

ومن الجدير بالذكر، إن الكثير من الأدباء الذين بدأوا الكتابة في بلدان معينة في فترة من فترات حياتهم اضطروا إلى الهجرة في فترة لاحقة وأصدروا نتاجاتهم هناك وهذا ما سيؤثر على نتاجهم وعليه أن يؤخذ بنظر الاعتبار. ولعله من الأهمية بمكان أن المعلومات التي ينبغي جمعها هي أسماء الأدباء الذين كتبوا القصة والرواية باللغة السريانية حصراً وتواريخ ولاداتهم

ونبذ عن حياتهم وإصداراتهم وتواريخ الإصدار ومكانه والقائم بالإصدار وعدد النسخ المطبوعة ومكان توزيعها وغيرها من المعلومات التي تعتبر مهمة. والأهم من كل ذلك هو توفر الإصدار نفسه سواء أكان نسخة أصلية أم صورة مستنسخة عنه ونوع الإصدار أهو في كتاب مستقل أم صفحة في مجلة أو جريدة، ثم النص نفسه لإستلهاهم مضامينه ونقده لتفصيل ريادته في زاوية ما وفنه اللغوي ومفرداته وأسلوبه والملاحق الفنية والجمالية وتقنياتها وخصائصها.

وتبعاً لذلك فقد قمتُ في الآونة الأخيرة بجرد للإصدارات الأدبية المندرجة في حقل السرد القصصي والمتوفرة في إحدى المكتبات العامة لمدينة فيرفيد في سيدني - أستراليا وتبين لي أنّ هناك الكثير مما لم يكن في تصورنا ولعل الأستاذ هيثم بردى الرائع الذي أصدى كل جهده ليكتب عن القصاصين زملاء إبداعه والظروف التي تحيط بالبلد فإنه لم تسعفه جهوده في الحصول على معلومات وافية في هذا المجال لذلك تحدد إطار دراسته فيما خرج لنا به وحسب ما قرأته من عروض لدراسته (لم يتوفر لي الإصدار نفسه) في الإنترنت، هو رائع ويشكر عليه.

وإذا اخترنا اصطلاح القصة في التجارب والرؤى والمواقف سواء المسرودة بنفسها أو المحرّضة بعيداً عن الجوانب الفنية التي قد تغطي هنا أو هناك أو يزيد هذا الجانب أو ينقص، فإننا نجد عناصر نظرية السرد الأدبي بمسمياتها الكثيرة تبرز هنا وهناك، منذ أول عبارات أو نصوص ظهرت باللغة السريانية.

لا نود هنا الغور في التاريخ فلنا عودة مستقبلية إليها، ولكن نظرة سريعة إلى ما يمكن إجماله هنا قد يثير الإنتباه لكثرتة. ليس هناك من المتبحرين في الآداب من لا يعرف قصة أحيقار الحكيم، وهي قطعة من التراث الأدبي في نظر الكثير من الدارسين، وقصة أبجر الملك، ويمكن أن يشار إلى الديايطسرون نفسه على أنه محاولة لوضع حياة ربنا يسوع المسيح له المجد في قصة

واحدة، وأنشودة لبرديسان عن ابن ملك يحكي قصته بنفسه. وقد يمكن إضافة أعمال توما كذلك، وسير الشهداء الضخمة.

وإن كان بعض الدارسين قد خرجوا باستنتاج أن القصة السريانية بدأت في القرن الخامس. واعتبار قصة أهل الكهف أو النائمين السبعة هي من بواكير القصة السريانية. وتلتها قصة مغارة الكنوز وقصة برص قسطنطين الأكبر، وقصة ابن الملك يوسف ومعلمه "برلام"، وقصة العنور على الصليب، وقصة مريم والكثير غيرها، فلاشك أنه يعمط حق هذا النوع الأدبي الذي يضاهاى الشعر في السريانية.

كما لا بد من التنويه إلى أن الأدب القصصي في اللغات الأخرى أثار انتباه الكتاب والمترجمين السريان فنقلوا قصصاً مثل كليلة ودمنة، وقصة الإسكندر الأكبر، وقصة يوليان المرتد، وقصة السندباد البحري وقصص ايسوب وغيرها.

ويضاف إلى هذا الكم الهائل من القصة السريانية عبر التاريخ الكثير من التأليف التي ظهرت بعد تراجع انتشار السريانية كلغة امبراطورية سادت مساحة واسعة من العالم وقتذاك. ومنها سيرة القديس مارينا، وهيلاريا ابنة القيصر، وقصة بهنام وسارة وسيرة أهرون السروجي، وسيرة يعقوب المصري، وقصة نهاية حكم القيصر موريقي.

إن توما اسقف المرج المعروف ألف ثمانمائة وأربعين قصة عن دير بيت عاوي على ما يقوله مراد كامل وزميليه البكري و زكية رشدي في مؤلفهم تأريخ الأدب السرياني، وكذلك ابن العبري كتب القصة كما كتب الشعر، وأحد الشراح كتب رواية مبسطة عن حياة يوالها الثالث.

وعودة سريعة إلى أواخر القرن التاسع عشر والعشرين نجد لمحات استنهاضية للسرد القصصي السرياني، ومن البواكير في هذه الفترة سيرة مار بيشوع كمولايا، وقصة الطوباوي يوحنا بر ملكي، ومروراً بسبعة نساء لدانيال توما، ورواية بيت بيلوس، وراحل عبر الأفق لبنيامين يوسف كندالو،

والطريق الشائكة، وجنحة الجنج، والخروج، والملك أسرحدون ولوربيلا
والفارس المقدام لكورش بنيامين، ونيسان المقدس لإشعيا شماشدا داود، دموع
القلم لكيوركيس أغاسي، والعديد من قصص وروايات ميشائيل لعازر، وقصص
يونييل أوراها بابا، والكاتب يوآرش قشيشا أوراها، ووصولاً إلى وليم دانيال
وكيوركيس نباتي وجورج عيسى كيوركيس وروبن بيت شموئيل ويونان
الهوزي وكاتب هذه السطور وعوديشو ملكو الذي كتب أخيراً رواية، وغيرهم.
لا ندعي أننا قدمنا جرداً بما اعتبرناه ضمن صنف السرد القصصي، بل
إننا حركنا الركود لفسح المجال للغواصين الماهرين ليأخذوا دورهم في البحث
والتقصي. وتبين لنا أن القصة والسرد القصصي في الأدب السرياني ثر
وبحاجة إلى إجراء دراسات عليه من كافة النواحي. ولعل أهم ما يتوجب
الإبتداء به هو جرده وحصره ليكن مفتاحاً بين أيدي الباحثين الذين سيزدادون
بقدر ما كانوا شحيحين.